وَجْهًا لِوَجْه

د. علي الوردي و د. جليل العطيّة

بيت الرقيم -1-

المركز الثقافي البغدادي
المركز الثقافي البغدادي
Baghdadian Cultural Center
مكتبة العلامة ميخائيل عواد
talib_essa@yahoo.com

(مجلّة «العربي» العدد ٣٦٠، نوفمبر ١٩٨٨، ص ٩٧-١٠٣)

وجهًا لوجه

د. علي الوردي ◻ د. جليل العطية

المركز الثقافي البغدادي
Baghdadian Cultural Center

■ الطبيعة البشرية من أعقد الموضوعات وأصعبها !

■ العقل البشري .. عقل متحيز !

■ الانسان - بوجه عام - "أنوي" وليس أنانيًا .

الدكتور علي الوردي مفكر وعالم اجتماع بارز ، بدأ نشاطه الفكري منذ بواكير الثلاثينيات ، ولا يزال حتى اليوم يواصل الابداع والتبشير بنظرياته التي تعتمد على تحليل بنية المجتمع العربي عامة والعراقي خاصة ، تقوم فلسفته على التبسيط والموضوعية ، فقد أولع منذ صغره بعلم النفس الاجتماعي ، وهو يرى أن علم الاجتماع مازال عاجزا عن فهم طبيعة الانسان على حقيقتها .

تثير كتابات الوردي جدلاً واسعاً في الأوساط الثقافية والاجتماعية ، وقد صدر له تسعة مؤلفات أهمها « لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث » ويقع في ثمانية أجزاء ولم يتم بعد ، وقد وجدت هذه الكتب رواجاً شعبياً كبيراً ، وترجم بعضها الى الألمانية والانجليزية والاسبانية والفارسية والبولونية وغيرها .

هو شخصية مثيرة للجدل ، يكفي أن نشير الى صدور اثني عشر كتاباً في الرد على آرائه وتحليلاته ، وهذا أمر نادر !

تذكرك شخصيته المتواضعة وتألقه وروحه الشابة بأبي حيان التوحيدي وغيره ممن عاشوا في أزهى عصور الحضارة العربية !

وهو يحمل على كتفيه اليوم هموم خمسة وسبعين عاماً . وقد أدار هذا الحوار معه الدكتور جليل العطية .

ـ منذ نحو عشر سنوات وأنت غائب عن المسرح الفكري ، وقد قيل الكثير عن أسباب هذا الغياب ، وعلمت أخيراً أنك عاكف منذ أمد بعيد على تأليف كتاب جديد يتناول « طبيعة البشر » ولمعرفتي بمنهجك وصبرك على التأليف ، فإنني أستغرب أن يتأخر كتابك الجديد ، الذي يتشوق له كثير من قرائك والمعجبين بك . . فهل لك أن تبين لنا أسباب هذا التأخير؟

● لا أكتمك أني أعمل في تأليف هذا الكتاب منذ أكثر من خمس سنوات ، هناك سببان لتأخير صدوره ، أولهما كبر سني وضعف صحتي ، بحيث أصبحت لا أقوى على العمل أكثر من ساعة أو ساعتين في اليوم ، أما السبب الثاني فهو صعوبة موضوعه ، ولا يخفى عليك أن طبيعة البشر هي من أصعب المواضيع النفسية والاجتماعية ، إن لم تكن أصعبها جميعا ، فهي موضوع متشعب ومعقد الى أبعد الحدود ، والواقع أني كلما توغلت في دراسته شعرت بأني لا أزال في أول الطريق ، وكلما بحثت في جانب منه ظهرت أمامي جوانب أخرى تحتاج الى بحث .

ظهرت في موضوع الطبيعة البشرية نظريات متعددة ، كما نشرت فيه دراسات لا تحصى ، وأعترف لك أني أشعر بالعجز تجاه تلك النظريات والدراسات ، فهي في غاية الصعوبة ، بل من المستحيل استيعابها كلها ، أضف الى ذلك أنها قد تتعارض وتتناقض ، ولهذا يقف الباحث حائرا لا يدري ماذا يأخذ منها وماذا يترك .

كذلك يجب أن لا ننسى أن العلوم التي تبحث في الطبيعة البشرية ، كعلم النفس وعلم الاجتماع ، هي من العلوم الحديثة جداً ، فهي لم تأخذ بالمنهج العلمي إلا منذ قرن واحد أو أكثر قليلاً ، ويمكن القول إن هذه العلوم مازالت تحت التأسيس ، وذلك لما فيها من نظريات ودراسات مختلفة أو متعارضة .

حاولت قدر جهدي أن أدرس النظريات المختلفة في هذا الموضوع ، ولكن طاقتي محدودة ، كما أن اتصالي بالأوساط العلمية في الخارج محدود كذلك .

إن الذي دفعني الى الاستمرار في دراسة الطبيعة البشرية هو ما انتشر بيننا من مفاهيم مغلوطة حول هذه الطبيعة ، وهي المفاهيم التي ورثناها في

المركز الثقافي البغدادي
Baghdadian Cultural Center
tarib_essa@yahoo.com

الماضي ، وأضرت بنا كثيرا من الناحية النفسية والاجتماعية ، ولا يزال الكثيرون منا ـ من المثقفين والعوام ـ يتداولون هذه المفاهيم ويتأثرون بها في علاقاتهم الاجتماعية ، دون أن يدركوا مبلغ الخطأ فيها أو فداحة الضرر الناتج عنها .

نماذج من الأخطاء

ـ هل لك أن تقدم لنا نماذج من تلك المفاهيم المغلوطة والضارة وأنت تعلم بأن جيلنا يعيش ظروفا مختلفة ، وبالتالي فإنه يعيش بعقلية أخرى وقيم مختلفة ، فما رأيك ؟

● لا يتسع المجال هنا لتعداد تلك المفاهيم ، وقد يكفي أن أذكر اثنين منها على سبيل المثال :

أحد هذين المفهومين هو الذي نسميه « العقلانية » ونعني به اعتبار الانسان حيوانا عاقلاً ، وأنه يجري في تفكيره وسلوكه حسبما يقضي العقل الواعي والمنطق السليم .

فإذا أردنا اقناع انسان بتبديل رأي له أو عقيدة ، فليس علينا إلا أن نقدم له الدليل العقلي الواضح الذي سيقتنع به حالا فيغير رأيه أو عقيدته ! أما إذا لم يفعل ذلك فهو لابد أن يكون متعصباً أو معانداً أو مغرضاً ، وهو في هذه الحالة يستحق العقاب أو التوبيخ .

أما المفهوم الثاني ، فهو الذي يتمثل في المبدأ القائل « من جد وجد » ومعناه أن كل انسان قادر على أن يصل الى ما يطمح إليه من نجاح أو عظمة ، بمجرد أن يبذل الجهد ويسعى ويناضل ، فالطريق مفتوح أمامه حسبما جاءت به الأمثال المأثورة نحو « كل من سار على الدرب وصل » و « كل من جال نال » و « من طلب العلا سهر الليالي » و « وهم الرجال تزعزع الجبال » وغيرها .

العقل البشري متحيز

ـ اسمح لي أن أخالفك في هذين المفهومين : فالعقلانية هي السمة التي تميز الانسان الواعي ، أما مبدأ « من جد وجد » فهو يعني أن على الفرد ـ خاصة الذي ينحدر من الطبقة العامة أو المحدودة الدخل ـ أن يعمل لكي يتبوأ مكانته في المجتمع ، ولدينا شواهد كثيرة تؤكد أن أبناء فقراء تسلقوا أعلى مراتب المجد والسلطة . .

● إن النظرة الحديثة تعتبر العقل البشري أنه متحيز ومحدود بطبيعته ، وهذه النظرة على النقيض من النظرة الفلسفية القديمة التي كانت تثق بالعقل ثقة مطلقة وتبالغ في تمجيده وتقديره .

نحن لا ننكر أن العقل جهاز عظيم ، وهبه الله للإنسان وهو أهم ما يميزه عن الحيوان ، ولكننا إذ نعترف بذلك يجب أن لا ننسى أن العقل له حدود يقف عندها ، فهو عظيم في نطاق تلك الحدود . وهو عاجز مشلول اذا خرج منها .

انتشرت بيننا أقاويل عديدة حول العقل وتمجيده ، وهي أقاويل ورثناها من الماضي . وقد اتسع نطاق تداولها حتى وصلت الى العوام . فأنت لا تكاد تتحدث الى أحد من العامة حتى تراه يشير بوجهه ويقول : « الله بأي شيء عرفناه ؟ بالعقل » أو يقول « الله أعطانا عقلا لكي نميز به الأمور » . أو ما يشبه ذلك .

إن هذا الإنسان البسيط لا يدري أنه عرف الله لأنه نشأ في بيئة اجتماعية تعبد الله ، سبحانه وتعالى . ولو أنه كان قد نشأ في بيئة تعبد الأوثان لعبدها مثل غيره من أبناء بيئته ، وهذا لا يصدق على العوام فقط بل يصدق على كثير من المثقفين أيضاً !

إن الإنسان حين يفكر يتصور أنه يجري في تفكيره حسبما يقضي به المنطق السليم ، وأنه حر مختار في تفكيره لا تأثير لأي مؤثر آخر عليه ، فهو لا يدري أن هناك عوامل لا شعورية متعددة تلعب دورها في تفكيره .

إذا تجادل اثنان حول رأي من الآراء ، فمن النادر أن ينتهي الجدال بينهما الى اتفاق ، فالدليل الذي هو قوي واضح في نظر أحدهما قد يكون واهيا أو غامضا أو غير معقول في نظر الآخر ، فكل منهما ينظر في

الأمور من خلال الإطار الذي وضعته العوامل اللاشعورية حول تفكيره ، فأنت تقول عن دليلك الواضح أنه كالشمس في رابعة النهار ، ولكنك لا تدري أن خصمك قد يكون أعمى أو هو في غرفة مظلمة ، أو أن إطاره الفكري جعله ينظر نحو جهة ليس فيها شمس ، وفي مصداق ما ورد في القرآن في قوله تعالى : « إنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور » أو قوله تعالى : « أكثرهم لا يعقلون » . المائدة (١٠٣)

علينا أن نضع ذلك أمام أعيننا عندما نريد أن نتعامل مع الناس ، أو نحاول اقناعهم برأي من الآراء . فإن الذي يتعامل مع الناس بوصفهم عقلاء كثيراً ما يفشل في حياته ، وهو عند فشله قد يلوم الناس على ما فعلوه به ، ولكنه أجدر باللوم منهم .

التراث

ـ أنت تقول أن هناك عوامل لا شعورية تؤثر في تفكير الإنسان من حيث لا يدري بها ، فما هي هذه العوامل ، وكيف يؤثر كل واحد منها في التفكير البشري ؟

● العوامل اللاشعورية المؤثرة في تفكير الإنسان متعددة أذكر أهمها :

التراثية ، وأعني بها ما يدل عليه مصطلح (Culture) المعروف في علم الاجتماع ، أي مجموعة المعتقدات والقيم والتقاليد والأعراف والتقنيات والحرف الموجودة في مجتمع معين التي يتميز بها كل مجتمع عن غيره من المجتمعات الأخرى ، فلكل مجتمع تراثه الخاص به ، كما أن لكل فرد شخصيته الخاصة به ، فالإنسان ينشأ منذ طفولته الباكرة في تراث معين ، واذا ظل في كبره قابعا فيه ، فإن تفكيره يكون مصبوبا في قوالبه التقليدية ، فالقبيح قد يكون في نظره حسنا ، والحسن قبيحا تبعا لتراثه وقيمه التي نشأ فيها ، فنحن قد نرى في بعض المجتمعات معتقدات أو تقاليد مستهجنة في نظرنا أو غير معقولة ، ولكنها صالحة ومعقولة في نظر الذين نشأوا فيها .

يقول العالم الاجتماعي سمنر في كتابه « الأعراف الشعبية » إن الأعراف الشعبية تستطيع أن تجعل أي شيء حسناً وأي شيء قبيحاً ، وهذا هو أحد النواميس الاجتماعية التي يجب أن يعرفها كل من يريد معاشرة الناس والتعامل معهم .

يروى عن الاسكيمو الذين يسكنون بالقرب من القطب الشمالي أن من تقاليدهم التراثية أن الضيف الذي ينزل في بيت أحدهم يجب أن ينام مع زوجة المضيف في فراش واحد !

إن هذه عادة اجتماعية نشأ عليها الفرد من هؤلاء القوم ، فلا يجد فيها منقصة أو عاراً ، ولكنها في نظر البدوي أمر لا يمكن تصديقه ، فالبدوي كما هو معروف من أكثر الناس إهتماماً بعفة المرأة وصيانتها ، وقد اعتاد أن يقتل المرأة التي تحوم الشبهة حول سلوكها ، وهو لذلك لا يستطيع أن يصدق ما يقال له عن تقاليد الاسكيمو حول المرأة ، إنه لا يدري أنه لو كان قد تربى وفق تراث الاسكيمو لغضب من الضيف الذي يرفض النوم مع زوجته !

المصلحة الخاصة .. والعاطفة

الانسان اذا كانت لديه مصلحة خاصة في أمر من الأمور أصبح عقله متحيزا نحو ذلك الأمر من حيث يدري أو لا يدري ، وهذا هو ما نلاحظه واضحا في قاعات المحاكم ، فالشخص الذي لديه قضية معروضة أمام احدى المحاكم يكون تفكيره منصبا على نجاح تلك القضية ، وهو يأتي في سبيل ذلك بمختلف الأدلة والبراهين التي تؤيد دعواه ، فإذا أصدر القاضي حكمه في مصلحة صاحب القضية صار في نظره أعظم القضاة في الدنيا وأكثرهم عدلا ونزاهة ! أما إذا أصدر القاضي حكمه بخلاف ذلك فإنه ينقلب حالا الى أسوأ قاضي .

ومن الممكن أن نقول عن العاطفة مثلما قلناه عن المصلحة الخاصة من حيث تأثيرها في تفكير الإنسان ، وكثيرا ما تتوحد المصلحة والعاطفة في الإنسان فتجعله يرى الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، فالإنسان يحب الذي يساعده في أمر من الأمور أو يحسن اليه ، ولكنه لا يكاد يراه قد نافسه في

المهنة أو المكانة الاجتماعية حتى يبدل نظرته اليه من الحب الى الكراهية ، وعندها تتحول محاسنه الى مساويء بعدما كانت عيوبه قد تحولت الى محاسن ، يقول الامام الشافعي في بيت له من الشعر مشهور :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

التجارب المنسية والأنوية

قد تمر بالإنسان تجربة مؤلمة أو سارة تجاه أمر من الأمور . ثم ينسى الحادثة ، ولكن ذكراها تبقى كامنة في لاشعوره ، فإذا رأى شخصا أو شيئا يذكره بتلك الحادثة شعر بالبغض أو الحب له . وكثيرا ما يؤثر ذلك على تفكير الإنسان تجاه الآراء أو المباديء أو الاتجاهات الثقافية أو السياسية .

أما الأنوية : فهي شعور الإنسان بذاته - أي بالأنا - تجاه الآخرين ، فالأنا محور الشخصية البشرية . وكل إنسان يسعى دائما نحو رفع مكانة « الأنا » في نظر مجتمعه ، وهو قد يدوس في بعض الأحيان على مصلحته أو عاطفته من أجل الأنا ، وأنت تستطيع أن تجعل منه صديقا مخلصا إذا أجزلت له الاحترام والمديح ، كما تستطيع أن تجعل منه عدوا لدودا إذا احتقرته أو أهنته .

وللمعرفة دور مهم ، فالإنسان يكذب الأمور أو يصدق بها حسبما تملي عليه معلوماته التي يملكها تجاه تلك الأمور ، خذ - مثلا - الأمي الذي يعيش في قرية بدائية منعزلة ، فهو يرى الأرض مسطحة ، والشمس تدور حولها ، ومن المستحيل أن تقنعه بخلاف ذلك ، وهو قد يعدك مجنونا أو جاهلا لأنك في نظره تنكر بديهية من البديهيات العقلية التي لا يجوز الشك فيها ، وهذا لا ينطبق على الأمي البدائي فقط ، بل هو يشمل أيضا البشر جميعا حتى العلماء منهم ! إذا نظرنا الى الأمر نظرة نسبية . فكثيرا ما وجدنا العلماء في القرن الماضي يعتبرون بعض الأمور مستحيلة ، ثم أصبحت في هذا القرن ممكنة .

الذكاء . . . الجنون

الذكاء على درجات متفاوتة في الأفراد - كما هو معروف - فهناك المتفوقون في ذكائهم ، والمتخلفون فيه ، والمتوسطون ، ولا حاجة بنا الى القول أن الذكي يفهم الأمور بشكل يختلف فيه عن الغبي .

وكثيرا ما يشعر المتفوق في ذكائه بأنه غريب بين الناس ، أو أنه غير قادر على إقناع غيره بصواب رأي من الآراء ، وهو قد يجلب نقمة الناس عليه لاختلافه عنهم في التفكير ، وهم قد يحتقرونه أو ينبذونه .

وما يقال عن درجات الذكاء يقال عن درجات الجنون ، فالناس كلهم مجانين ! إنما هم يتفاوتون فيما بينهم في درجة جنونهم ، فليس في البشر عاقل كل العقل ، أو مجنون كل الجنون ، وأكثر الناس لديهم من الجنون درجة ضعيفة ، وفي مقدورهم ترويضها والسيطرة عليها .

أما الذين نسميهم « مجانين » فهم الذين بلغ بهم الجنون درجة قوية بحيث لا يستطيعون السيطرة عليها ، وهذا يؤدي بنا الى القول إن الكثيرين من الذين نحسبهم عقلاء هم ليسوا عقلاء تماما ، فكل واحد منهم لابد أن يكون في عقله شيء من الخلل الذي يجعله يفهم الأمور بخلاف ما يفهمه الآخرون قليلا أو كثيرا .

يجب أن نضع هذه العوامل أمام بصرنا عندما نريد التعامل مع الناس أو مجادلتهم .

فأنت حين تريد أن تقنع شخصا بصحة رأي من الآراء لا يكفي أن تقدم له الدليل العقلي في ذلك ، بل يجب أن تتسلل الى تفكيره عن طريق هذه العوامل . بعضها أو كلها ، ومعنى هذا أنك يجب أن تتسلل اليه عن طريق تراثه أو مصلحته أو عاطفته وأنويته أو غيرها ، فالدليل لا يكون مقنعا إلا إذا كان منسجما معها على وجه من الوجوه ، ويجب أن لا ننسى أن هذه العوامل قد تكون متعارضة في بعض الأفراد . وليست هي في تناسق دائم ، وهذه ثغرة يمكن التسلل منها الى داخل تفكير الإنسان .

الأنوية والأنا !

- يلاحظ أنك تكثر في بعض دراساتك وأحاديثك من ذكر « الأنوية » ، وهذا المصطلح غير معروف في الوطن العربي ، فهل جاءت نسبته من « الأنا ؟ » نعرف أن

النظرية الحديثة لدراسة طبيعة الانسان تذهب الى اعتبار « الأنا » محور الشخصية البشرية . . في هذه الحالة كيف تحلل الفرق بين « الأنا » و « والأنانية » ؟ !

* « الأنوية » « كالأنانية » منسوبة الى الأنا ، ولكن هناك فرقا بينهما في المعنى ، فالمعنى المتداول بين الناس عن الأنانية هو أنها هي التي تجعل الإنسان يهتم بمصلحته ، ولا يهتم بمصحلة الآخرين ، أما « الأنوية » فهي تعطي معنى آخر ، اذ هي تعني شعور الإنسان بذاته ـ أي الأنا ـ تجاه الآخرين ، وهذا الشعور يجعل الإنسان في دأب متواصل نحو رفع مكانة الأنا في نظر المجتمع .

إن الإنسان بوجه عام « أنوي » وليس أنانيا ، ونحن لا ننكر وجود أفراد غير أسوياء ، تظهر فيهم الأنانية ، ولكن هؤلاء قلة قياسا الى غيرهم من الناس ، فالإنسان السوي في الواقع كثيرا ما يخدم الآخرين ، ويضحي من أجلهم بغية نيل تقديرهم ، أي بقصد رفع مكانته في نظرهم ، وبعبارة أخرى : إن الإنسان يجد من مصلحته أن يخدم مصلحة الآخرين ، فهو فرد في مجتمع ، يسعى دائما الى رفع مكانته في نظر الآخرين ، وهو يشعر بالسعادة في ذلك ، وكلما ازداد ارتفاع مكانته ازدادت بذلك سعادته .

إن النظرية الحديثة في طبيعة الإنسان هي أن « الأنا » محور الشخصية البشرية ، ويؤسفني أن أقول أن هذه النظرية لم تعرف في اللغة العربية إلا في نطاق محدود ، ولايزال الكثيرون من الكتاب العرب واقعين تحت تأثير مرحلة فرويد وبونغ وأدلر ولم يتجاوزوها ، هذا مع العلم أن نظريات هؤلاء أصبحت من النظريات العتيقة التي عفا عليها الزمن .

ـ ماذا تقصد بقولك إن « الأنا » محور الشخصية البشرية ؟ هل هذا يعني « أننا نرجسيون » بالطبيعة ؟ هل « الأنا » يكتسبها الفرد من أفراد المجتمع أم أنها تنشأ لديه منذ الطفولة . . وهل كانت « الأنوية » معروفة قديما ؟

* إن الإنسان بوجه عام يركز معظم تفكيره حول « الأنا » ، وكيف ينظر الناس اليه ، وهو يشعر بالغبطة حين يرى الناس يقدرونه ويعجبون به ، كما يشعر بالامتعاض حين يرى الناس يحتقرونه أو ينظرون اليه باشمئزاز أو إهمال ، وقد يصح أن أقول إن معظم نشاط الإنسان في حياته يدور حول هذه النقطة ، فهو يسعى دائما من أجل أن يكون موضع فخار لا موضع عار !

يقول المثل البدوي القديم « النار ولا العار » ، ومازال هذا المثل منتشرا وقوى الأثر في المجتمع البدوي حتى الآن ، ومعناه أن البدوي يُفضل دخول النار في الآخرة على كسب العار في الدنيا ، فالعار لا يمكن أن يحتمله البدوي في حياته على أي حال ، والواقع أن هذا ليس هو شأن البدوي وحده بل هو يشمل الناس جميعا على درجات متفاوتة .

إن الأنوية تظهر في الإنسان منذ طفولته الباكرة ، ومن علامات ظهورها في الطفل أنه يبتهج ويبدو عليه الزهو حين نمدحه ، كما يبدو عليه الإمتعاض حين نذمه . ونحن نستطيع أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نطلبه منه بمجرد أن نمدحه إذا قام به ونشجعه عليه .

والملاحظ أن الطفل يكون شديد الحساسية تجاه أقرانه من الأطفال ، فنحن لا نكاد نمدح طفلا آخر بحضوره ، أو نحمل ذلك الطفل ونتضاحك له ، حتى يشعر هو بالغيرة الشديدة منه ، وقد يبكي دون أن نعرف السبب الذي دفعه الى ذلك .

إن تجاهلنا « للأنوية » في الطفل كثيراً ما يؤدي الى تكوين العقد النفسية فيه ، فقد اعتاد الناس في مجتمعنا على مداعبة الطفل الصغير أمام أطفال آخرين أكبر منه ، إننا لا ندرك مبلغ الألم العميق الذي يشعر به الطفل من جراء ذلك ، إن أفراد العائلة كثيراً ما يفرحون بولادة طفل جديد لهم ، فيلتفون حوله ويضحكون له في حضور إخوته الذين هم أكبر منه ، غافلين عما يحدثه ذلك من أثر سيء في نفوسهم ، إن الطفل الجديد لم تتكون « أنويته » بعد ، وهو اذن لا يقدر اهتمامهم به ، بينما يشعر الأطفال الآخرون

بالغيرة منه ، وربما انتهزوا الفرصة فيما بعد للإساءة اليه انتقاما منه من حيث لا يقصدون أو لا يشعرون .

كانت التربية القديمة غافلة عن وجود « الأنوية » في الطفل ، فقد كانت تعتمد على العصا في تأديبه من جهة ، وعلى الموعظة الخطابية من الجهة الأخرى . . كان الأطفال عندنا يلعبون في الأزقة ، حيث تنشأ « أنويتهم » على أساس التفاخر بالقيم « الزقاقية » في الغلبة والإعتداء والسَرِقة ، كنا نتركهم ينشأون على هذا النمط ، ثم نأخذ بتوجيه مواعظنا الرنانة اليهم .

وهذا هو من عوامل نشوء الشخصية المزدوجة في البعض منهم ، أما « النرجسية » فإنها حُب الذات وهي شيء آخر .

يمكن إلغاء ثلاثة أرباع النحو !

ـ الحريصون على سلامة اللغة العربية ودعاة التشدد في استخدامها ، يتهمونك بضعف الأسلوب ، وقلة العناية بقواعد اللغة ، وخاصة النحو والإملاء ، وما أشبه ، والمعروف أنك نشأت في مدينة دينية تكثر فيها المدارس التقليدية التي تدرس فيها مختلف العلوم ومنها العربية ونحوها وصرفها . . فلم ابتعدت وخالفت ، وما هو تصورك لوظيفة اللغة ؟

* إن اللغة في مفهومها الحضاري الحديث وسيلة لا غاية ، ولعلني لا أغالي اذا قلت إن الذين يسعون لتجميد لغتهم ، وإبقائها على نحو ما كانت عليه قديما ، إنما هم يسيئون الى أمتهم من حيث لا يشعرون .

قال لي أحد المتحررين من الذين درسوا النحو دراسة مستفيضة : إن ثلاثة أرباع القواعد النحوية التي تدرس في مدارسنا يمكن أن تلغى دون أن يؤدي ذلك الى أي ضرر .

ومن الجدير بالذكر أن هذه القواعد الكثيرة التي تدرس في مدارسنا ، لم تنشأ نشوءا طبيعيا ، فالكثير منها قد اختلقها النحاة في العهد العباسي تحت تأثير المنطق الاغريقي وعوامل أخرى ، فأخرجوها بذلك عن السليقة الفطرية التي كان العرب الأولون يجرون عليها ، وبعبارة أخرى : إن العرب الأولين لم يكونوا يعرفون هذه القواعد المعقدة أو يتبعونها في أحاديثهم اليومية ، فهي قواعد غير طبيعية ، وليس من المعقول أنهم كانوا يعرفونها في الوقت الذي كانوا يتكلمون فيه على فطرتهم من غير تكلف وتصنع ، ولكن النحويين جاءوا بعدهم فصاروا يتنافسون في تطوير القواعد النحوية وتزويقها ، حيث صار ذلك حرفة لهم يرتزقون منها ويتباهون بها .

نستطيع أن نشبه القواعد النحوية التي طورها النحويون بالقواعد الفقهية التي طورها الفقهاء . . فنحن نعرف أن النبي (ص) جاء بتعاليم قليلة في شأن الطهارة والوضوء والصلاة والصوم والحج وغيرها ، ولكن الفقهاء جاءوا فطوروا تلك التعاليم وعقدوها بحيث أصبح من الصعب على الإنسان اتباعها بحذافيرها ، ومن يريد اتباعها حرفيا قد يصاب بداء « الوسواس » الذي لا يرجى شفاؤه . ومن يقرأ المجلدات الضخمة التي كتبها الفقهاء في موضوع الطهارة وحدها يجد بحراً بلا نهاية . . وهذا هو الذي ثار عليه الشيخ محمد عبده في مصر والسيد محسن الأمين في الشام .

لقد دعوت دائما الى وجوب تقليص القواعد النحوية في لغتنا وتبسيطها ، وقد عانيت من هذه الدعوة ما عانيت ، وها أنا في أواخر عمري لا أبالي بما قالوا ويقولون ، وعزائي في ذلك قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (١٧) الرعد . □

* ان الكثير الذي ربحه العالم بالعقل ، لا يوازى ما خسره بسبب العقل أيضا .
(براتراند رسل)

بيت الرحيم-1-
المركز الثقافي البغدادي
المركز الثقافي البغدادي
Baghdadian Cultural Center
مكتبة العلامة ميخائيل عواد
talib_essa@yahoo.com